د . علي سعد

طه حسين : الوحدة في التنوع

قليل من الادباء والمفكرين الذين يصمدون لفعل الزمن العامل هدما وتفتيتا في نفوس القراء ، مثلما صمد طه حسين . فان غالبية الكتاب والشعراء الذين ملأوا مخيلتنا في بدايات تكوين حساسيتنا واذواقنا الادبية فاحتلوا فيها المكان الذي نفرده لابطال صبانا أو طفولتنا ، لا يلبثون ، عندما نعود الى آثارهم بعد أن تتطور مفاهيمنا وتنضج تجاربنا وتتغير النسب بين احجام الناس والاشياء في نفوسنا ، لا يلبثون ان يبهت بريق صورهم وتخفت اصداء اقوالهم في وجداننا وفي مهاوي قلوبنا .

اما طه حسين فيشذ عن القاعدة . بل لعله الاديب الوحيد الذي لا تزيده العودة الى آثاره الا رسوخا وامتدادا في نفس قارئه واثارة للاكبار المتجدد .

ومن تهيأ له مثلما تهيأ لي في الاسابيع الاخيرة ، تحضيرا لهذا البحث ، أن يلم بمعظم آثار طه حسين ، في جولة واحدة ، لا يملك نفسه من الانسياق فيما يشبه الدوار امام هذا العالم المتكامل من الافكار والرؤى والاحاسيس والذكريات والتجارب النفسية التي لا حد لشمول آفاقها وعمق اغوارها وجدتها وغناها وصدق النبرات الانسانية التي لا تنقطع عن الرنين داخلها .

وقد يحار الباحث في اي الجوانب من حياة طه حسين وآثاره أحفل بالعجب .

اهو هذا المثل للشجاعة والعناد البطوليين الذي ضربه هذا الانسان عندما استطاع الانتصار على القدر الذي حرمه من نعمة البصر ، وكان يهيئه لمصير ينتظر امثاله من المكفوفين ،صوره له والده الشيخ حين قال له في ساعة غضب « اني اقسم لامسكنك في القرية ولاقطعنك عن الازهر ولاجعلنك فقيها تقرأ القرآن في المآتم والبيوت » ، فارتفع بمصيره الى حيث اراد والى حيث استطاع ان يعطي من قلبه وعقله وبصيرته نورا لا ينضب لما لا يحصى من المبصرين .

ام هو هذا الزاد الهائل الفني من الوان الثقافة وفنون المعرفة الذي غرف منه واطعم الاخرين هذا الذي ما انفك يجمع في ذاته ، حتى آخر يوم من عمره الطويل ، صفتي المعلم والتلميذ يتابع التحصيل ويلاحق كل التيارات الجديدة في أدب قومه وفي الآداب العالمية ، بقدر ما يغوص في اغوار التراث الفكري الاسلامي والعالمي ليخرج من هذا المزيج البالغ الخصوبة من معارف امته والامم الاخرى ، في ماضيها وحاضرها ، بروائع من كل فن ولون .

أم هو هذا الجهد الدؤوب الذي ظل يبذله هذا المثقف الخارج من بيئة محافظة مغرقة في تعلقها بقيم الماضي ، سعيا للانتقال بنفسه وبمواطنيه من المفاهيم الجامدة والخرافات والاوهام وضيق الافق الى الحياة المستنيرة داعيا بكل قواه للانفتاح على حضارات المجتمعات المتقدمة وللتعرف الى طرق جديدة في العيش وفي التفكير وفي العمل .

أم هو هذا الصراع المستمر الذي خاضه بعناد وثبات هذا المواطن المناضل ، انطلاقا من الميدان الفكري والثقافي ضد القوى التي كانت تعمل على عرقلة تقدم مجتمعه ، فوضع كل ثقل علمه وثقافته والمكانة الاجتماعية التي اتاحاها له في معركة تحرير امته من اغلال الجمود والخمول وفي فضح وجوه التخلف والفقر والمهانة التي كانت تعاني منها.

هذه الجوانب وعشرات من الجوانب الاخرى في حياة طه حسين وفي فكره هي التي بوأته هذه المكانة التي لم يتح لاديب عربي ان يبلغها في قلوب القراء وعقولهم ، لا في مصر وحدها ، وانما في كل بلدان العالم العربي ، بل وفي بعض البلدان الاجنبية المتقدمة .

هذا التعدد المدهش في الجوانب التي أطل منها طه حسين على الناس ، صحفيا وكاتبا وناقدا أدبيا ، واستاذا جامعيا ورائدا في البحث الادبي المنهجي وفي التخطيط التربوي ، وفي التعريف بالآداب الاجنبية القديمة وبالاداب العالمية الحديثة ، ومشاركا في اكثر المعارك الاجتماعية والفكرية والسياسية التي هزت مجتمعه ، وهذا التنوع في المسالك التي طرقها هذا الاديب بقلمه ومسلكه وهذا الزخم الدافق من صنوف التحرك والنفاذ ، كل ذلك يعطي صورة هذا الانسان الفذ غنى في الالوان ، ويضفي على صوته حرارة في الايصال ، والتأثير والفعل لم يتأتيا لاي اديب عربي آخر في عصرنا الحديث .

فلا عجب ان راى فيه القراء العرب احدى الصور الصادقة للعصر الذي عاشه ولتطور مجتمعه المصري والاسلامي في سعيه للانتقال من الحياة التقليدية الى الحياة الحديثة .

ولا عجب ان وجدت اجيال متلاحقة من القراء العرب في طه حسين وعمله الفكري اختصارا معاشا ، تم على صعيد الفرد ، خلال معاناة كبيرة ، لتجربة الامة كلها في تلمسها طريقها للخروج من حياة التخلف . ولا يسعنا الا ان نعيد ،هنا ،بعضا مما قاله كامل زهيري في هذا المعنى: « وطه حسين ، لهذا السبب ، فريد بين كتاب عصره ، لانه جمع النقائض التي تمر بالامة نفسها ولانه عايشها ، وذاق وعانى من الدراسة التقليدية الضيقة في الكتّاب وصحن الازهر ، كما تلمس الجو « غير الفعلي » في القرية ، بأعلى الصعيد ، وفي أزقة القاهرة ، ثم تقلبت حياته ، فتذوق ما يسمى بالمنهج الفكري وتذوق رفاهية الذوق المصقول،

وانتقل من كفر الطماعين (قريبا من الازهر) الى السوربون ، فاذا به وهو الحريص على الا تفصل خطاه لا يفصل ولا يتعثر ، لانه امسك بزمام عقله في كل هذه الرحلة الشاقة التي تصور رحلة الامة نفسها .

« بل ونستطيع ان ندعي ان طه حسين هو اصدق صورة لهذا العصر الذي انقضى بين الحربين العالميتين ، لانه اخذ من كل نقائض هذا العصر بطرف . وهو عصر ارتطمت فيه تيارات فكرية ووجدانية عارمة وكانت مصر تبحث فيه عن كيانها وكانت تلوح امامها مسالك عدة وطرق متفرقة . وكان طبيعيا ، بل وحتميا ، والامة تولد وتنقب عن اصلها ، وفي جذور تاريخها الطويل المتراكم أن تدور المناقشات ، المخلصة والمتوجسة والحامية الوطيس حول الشرق والغرب،والقبعة والطربوش، والحجاب والسفور ، والقومية المصرية والقومية العربية وفكرة الامة في نظر الدين وفي نظر القومية ، والفصحى والعامية ، وقدر الحضارة العربية بالنسبة لحضارات الانسانية ، وعلاقة هذه الحضارة باوربا وحوض البحر الابيض وبتراث الاغريق والرومان ، وطرق التعليم ووسائل الحكم ، ودور الازهر ومهمة الجامعة المصرية ، واثر التربية الدينية ومهمة التعليم الزمني أو المدني وغير ذلك .

« وقد كابد طه حسين كل ذلك بنفسه وجرب هذه المسالك المتعددة. ومن هنا كان عناؤه تجريبيا ، لم يتوفر لكثير من معاصريه على هذه الصورة التي تجمع بين الازهر والسوربون .

« فان طه حسين لم يستقر على نظرية معدة سلفا ، او نظرة جاهزة كفته مؤونة البحث ، انما عانى بنفسه مهمة البحث عن كل ما يعتقد انه الصواب في كل هذه القضايا التي كانت تشغل اذهان ابناء مجتمعه .

ولهذا فان احب صفات طه حسين الى قرائه هي الصدق » (1).

ولكن تنوع الوجوه والنوافذ التي يطل منها طه حسين وتعدد المسالك التي طرقها خلال سيره الطويل في خدمة الثقافة المصرية والعربية والانسانية لا يستطيعان اخفاء نوع من الاستمرار والتماسك في شخصيته وضرب من الوحدة في سير فكره وادبه وتحركه الاجتماعي .

وهذه الوحدة نلمسها على اصعدة عدة :

اننا نلمسها ، أولا ، في استمرار دوران ذهنه وخلقه الفكري حول بعض الميادين المحدودة العدد التي كانت تشكل ما يشبه الشرايين الكبرى لتحركه الفكري والتي كانت تصب في مجاريها الواسعة القنوات الفرعية المتحدرة مما لا يحصى من المواضيع واللفتات الى آفاق بالغة التشعب.

واننا نلمسها ، ثانيا في الاتجاه العام لخطي السير في تحركه في الميدان الادبي والفكري من جهة ولتحركه في الميدان الاجتماعي والسياسي من جهة اخرى ، وفي ما يبدو من تلازم وتقارب بين هذين الخطين ومن توجه دائم مستمر نحو مرامي واهداف اجتماعية صريحة تارة وخفية طورا آخر ومرتبطة دائما برؤيا واحدة لاوضاع مجتمعه وبارادة غير معلنة لتغيير البالي والضار من هذه الاوضاع .

ونلمسها ثالثا في المنهج الواحد الذي كان يتبعه في معالجة مختلف القضايا الكبرى التي تعرض لها .

ونلمسها رابعا في اسلوبه المميز في صياغة افكاره .

ونلمسها اخيرا في القاعدة الركائزية التي ينطلق منها ادب طه حسين وفكره ونعني بذلك مجموعة المؤثرات التي عملت تكوين هذه المظاهر الفوقية التي تميز طه حسين الانسان والاديب والمفكر .

اننا سنستعرض ، ما امكننا ، هذه الاصعدة المختلفة التي نرى ان شخصية طه حسين تتجلى فيها على اكثر ما يكون الانسجام والتجانس والتماسك والتفرد .

(1) كامل زهيري : « طه حسين رجل ومنهج » ـ الهلال ـ عدد خاص بطه حسين . اول فبراير ١٩٦٦ .

ففيما خص الوجه الاول من وجوه ما سميناه الوحدة والانسجام والاستمرار في شخصية طه حسين ، ينبغي ان نلاحظ ان الغزارة الكبيرة في انتاج كاتبنا خلال ما يزيد على النصف قرن وتنوع المواضيع الصغيرة والكبيرة التي عالجها ، لا يمنعاننا من ان نرى عنده نوعا من نقاط الاستقطاب الثابتة التي تتارجح بينها اهتماماته الادبية والفكرية فلا يترك الواحدة حتى يعود اليها بعد زمن،مرة او مرات .فكانما به عندما يتوجه الى احد المواضيع ينصرف اليه بكل قلبه وجوارحه ويندمج في جوه ويتوحد فيه حتى لا يستطيع عنه الانسلاخ النهائي بل تبقى وشائج واوتار خفية تشده اليه دوما .

ولننظر قليلا الى بعض الامثلة عن هذا التارجح المستمر حول بعض المواقع الاستقطابية ونقاط الانجذاب في أدب طه حسين .

فهناك اولا ابو العلاء المعري ، هذا الشاعر والفيلسوف الذي ظل يتردد في خاطر طه حسين وعلى قلمه .

ففي سنة ١٩١٤ قدم طه حسين رسالته لنيل الدكتوراه من الجامعة المصرية تحت اسم « ذكرى ابي العلاء »

وفي ١٩٣٥ يصدر دراسته « مع ابي العلاء في سجنه » .

وفي ١٩٤٤ قدم « صوت ابي العلاء » وهو عبارة عن شروح للزوميات ابي العلاء .

وهناك ثانيا دراساته لتاريخ الفكر اليوناني والروماني القديم ، بدات بنشره فيما بين عام ١٩١٩ و ١٩٢٤ في صحيفة الجامعة المصرية قسما من محاضراته في الجامعة المصرية تحت اسم دروس التاريخ القديم في الجامعة المصرية .

ثم اصدر عام ١٩٢١ ترجمته لكتاب ارسطو حول «نظام الاثينيين»

ثم في ١٩٢٥ اصدر « قادة الفكر » وهو مجموعة دراسات عن المشاهير من فلاسفة ومفكرين وشعراء اغريق ورومان .وبعد اربعة عشر عاما عاد الى هذه الينابيع من الثقافة القديمة عندما نشر عام ١٩٣٩ : « من الادب التمثيلي اليوناني : سوفوكليس » .

وموقع استقطابي ثالث في عالم طه حسين الفكري هو موقع الدراسات المتعلقة بنشاة الاسلام وتطور الدولة الاسلامية في عصورها الاولى خاصة .

وبدات السلسلة بقصة « على هامش السيرة » الصادرة تباعا في مجلد أول عام ١٩٣٣ ثم في مجلد ثان بعد تسع وعشر سنوات ثم كان «الخلفاء الراشدون» عام ١٩٤٧ ،ثم الفتنة الكبرى في مجلدين :اولهما عام ١٩٥٣ وثانيهما عام ١٩٦٠ .

وقبل ذلك صدرت مجموعة القصص الاسلامية عام ١٩٥٠ تحت اسم « الوعد الحق » واخيرا « مرآة الاسلام » عام ١٩٥٩ .

ومن المواقع الاستقطابية الاخرى نذكر دراساته وترجماته ومحاولاته للتعريف بالآداب العالمية وخاصة بروائع الادب الفرنسي ، التي نشرها على فترات متباعدة ، وكذلك آثاره التي تحكي ذكرياته عن وقائع حياته، ومنها « الايام » الذي نشر في اجزاء جد متباعدة و « في الصيف » وغيرها .

ونكتفي الان بهذا القدر من مظاهر تردد طه حسين المستمر حول عدد محدود من القضايا الكبرى التي لا ينتهي ابدا شوقه للعودة الى كل منها ، مهما طال به زمن الانصراف عنها .

وسنرى بعد قليل وجود الترابط في عالم طه حسين بين هذه المجالات المتنوعة .

ولننتقل الى الوجه الثاني من وجوه الوحدة والتناسق والتماسك والاستمرار في عالم طه حسين ، والذي يتعلق بالاتجاه العام لخطي السير في تحركه ، في الميدان الثقافي والادبي من جهة ، وفي الميدان الاجتماعي والسياسي .ومن هذا الباب ، لا يسعنا الا ان نلاحظ ان تاريخ الادب العربي الحديث قلما عرف اديبا جند مواهب بمثل الحيوية

والمضاء والاتساع التي كانت لطه حسين لخدمة قضية بمثل هـذا الالتصاق بقضية شعبه ومجتمعه .

وفي ظني ان الصفة التي دفعت بطه حسين الى أفئدة قرائه هي بقاؤه دائما في قلب الساحة التي كانت تتصارع فيها الافكار والاقلام حول القضايا اللاهبة التي تهم مجتمعه . واهتداؤه الى ينابيع الثقافة العالمية بمعناها الاشمل والاعمق ، وعمله في الدراسات والتحقيقات والبحوث الادبية الاكاديمية التي تتطلب الهدوء والاناة والموضوعية ، وارتقاؤه أعلى المناصب الجامعية والسياسية ، كل ذلك لم يمنع حضوره الدائم على كل الجهات التي كان ينبض فيها قلب وطنه وشعبه، ولا انساه عادات النزول الى ميادين العراك حول المبادىء والافكار ، حتى اواخر مراحل عمره ، بمثل الاندفاع والحرارة التي كان يقبل فيها على العراك أيام كان طالبا في الازهر او في الجامعة المصرية .

هذا البذل الدائم الذي كان يسخو به طه حسين فيعطي من نفسه بقدر ما كان يعطي من قلمه ولسانه هو الذي رسخ له هذا الحضور الحي في حياة مجتمعه ، وفي عقول قرائه . وان بقاء طه حسين قريبا دائما من مواضع النبض والتحفز والتفاعل في حياة المجتمع المصري خاصة والمجتمع العربي عامة هو الذي يجعل من أدبه انعكاسا مدويا وملتهبا ليس فقط لمراحل حياته الفكرية والنفسية ، وانما ايضا لهواجس وأشواق وتطلعات الناس البسطاء والنيرين ، الفقراء والاقل فقرا ، في بلده . ولئن جاء أدبه شهادة باهرة على التحولات الضخمة التي حدثت في مجتمعه خلال ثلاثة ارباع القرن المنقضية فان حياته الحافلة بالعمل والنشاط كانت احد العوامل الهامة في احداث هذه التحولات .

فهو احد الذين دعوا باكثر ما يكون الالحاح الى ضرورة اعادة النظر في نظم التربية المتبعة في المجتمع المصري بحيث تتلاءم مع انطلاقة هذا المجتمع في طريق التقدم . وكتابه « مستقبل الثقافة في مصر » الصادر في عام ١٩٣٨ يضع الخطوط العريضة للاصلاح التربوي المنشود على النحو الذي عودنا عليه في دراساته الادبية : تسلسل منطقي ومنهجه صارمة . وهذا الكتاب « مستقبل الثقافة في مصر » يشكل الركيزة لعقيدة طه حسين السياسية والاجتماعية . وفيه نجد الصورة الواضحة لرؤيته السليمة حول الطريق التي ينبغي اتباعها للنهوض بالشعب المصري الذي كان يعاني من الاحتلال الاجنبي واستبداد القصر والاقطاع ، ومن الفقر والمهانة والجوع وكل مظاهر التخلف . فاكد على ان السبيل الوحيدة للخروج من كل هذا الاوضاع المهينة تنحصر في ضرورة تحديث التعليم واشاعته الى ابعد الحدود بين كل افراد الشعب، وفي توحيد مناهج التعليم بصورة تؤدي الى « تكوين الوحدة الوطنية بين المصريين والى تثبيت الديموقراطية وحماية الاستقلال » .

واننا نحس في كثير من صفحات هذا الكتاب الروح الاصلاحية واللهب الثوري الذي كان يلهم واضعي شرعة حقوق الانسان في بداية الثورة الفرنسية . فلنستمع الى طه حسين يقرر بكلمات تتخذ الطابع الرسولي الذي اعتدناه من مخططي الانظمة والمذاهب وبناة الدول ومحدثي الانعطافات في التاريخ :

« ان الواجب الوطني الصحيح ، بعد أن حققنا الاستقلال واقررنا الديموقراطية انما هو ان نبذل ما نملك من القوة والجهد ومن الوقت والمال لنشعر المصريين افرادا وجماعات ان الله قد خلقهم للعزة لا للذلة وللقوة لا للضعف وللسيادة لا للاستكانة ، وللنباهة لا للخمول ، وان نمحو من قلوب المصريين هذا الوهم الشنيع الذي يصور لهم انهم خلقوا من طينة غير طينة الاوربي ومنحوا عقولا غير العقول الاوربية ...

« كلا انما خلق الناس جميعا ليكونوا سواء في الحقوق والواجبات ولكن الناس يطغى بعضهم على بعض ويجب ان يهدم هذا الطغيان وان نكون نحن هادميه ....

« ونحن حين نشرع القوانين وننشيء المدارس وننشر العلم وننظم الاقتصاد ونستعير النظم الديموقراطية من اوربا انما نسعى الى شيء واحد هو تحقيق هذه المساواة التي هي حق طبيعي لابناء الوطن الواحد جميعا .

« يجب ان نمحو من انفسنا ان في الارض شعوبا قد خلقت لتسودنا . ويجب ان نمحو من انفسنا ان في الارض شعوبا قد خلقت لنسودها .....

« ولكن السبيل الى نظام المساواة في الحقوق والواجبات ، هذا الذي نريد ان نقره في حياتنا الداخلية وفي حياتنا الخارجية ، هي واحدة فذة ليس لها تعدد وهي : أن نسير سيرة الاوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم اندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها..

نحن في حاجة الى قوة الدفاع الوطني ...

ونحن في حاجة الى استقلال اقتصادي ...

ونحن نريد الاستقلال العلمي والفني والادبي ...

فاذا كنا نريد هذا الاستقلال العقلي والنفسي الذي لا يكون الا بالاستقلال العلمي والادبي والفني ، فنحن نريد وسائله بالطبع ، ووسائله ان نتعلم كما يتعلم الاوروبي لنشعر كما يشعر الاوربي ولنحكم كما يحكم الاوربي ثم لنعمل كما يعمل الاوربي ونصرف الحياة كما يصرفها .

نريد الحرية الداخلية وقوامها النظام الديموقراطي . ونريد الحرية الخارجية وقوامها الاستقلال الصحيح والقوة التي تحوط هذا الاستقلال .

وسبيل ذلك واحدة لا ثانية لها وهي بناء التعليم على اساس متين». وبعد أن يستعرض طه حسين مشاكل التعليم في مصر وخاصة توزعه بين المدارس الاجنبية والحرة والدينية الى جانب التعليم الرسمي ، وتأكيده على ضرورة اخضاع التعليم في هذه المدارس لاشراف الدولة وملاحظتها الدقيقة والمتصلة ، سعيا « لتكوين الوحدة الوطنية وتثبيت الديموقراطية وحماية الاستقلال »، ينتهي الى المناداة بضرورة اقرار التعليم الاولي الالزامي فيقول ما نصه :

« ان التعليم الاولي الالزامي ركن اساسي من اركان الحياة الديموقراطية الصحيحة ، بل هو ركن أساسي من أركان الحياة الاجتماعية .

« ان النظام الديموقراطي يجب ان يكفل لابناء الشعب جميعا الحياة والحرية والسلم .

« الدولة الديمقراطية ملزمة ان تنشر التعليم الاولي وتقوم عليه لاغراض عدة : أولها ان هذا التعليم الاولي ايسر وسيلة يجب ان تكون في يد الفرد ليستطيع ان يعيش . والثاني ان هذا التعليم الاولي يجب ان يكون في يد الدولة نفسها لتكوين الوحدة الوطنية واشعار الامة حقها في الوجود المستقل الحر ، والثالث ان هذا التعليم الاولي هو الوسيلة الوحيدة في يد الدولة لتمكن الامة من البقاء والاستمرار لانها بهذا التعليم الاولي تضمن وحدة التراث الوطني الذي ينبغي ان تنقله الاجيال للاجيال .

« واذا كانت الديمقراطية مكلفة ان تضمن للافراد الحرية كما ضمنت لهم الحياة ،فان الحرية لا تستقيم مع الجهل .فالدعامةالصحيحة للحرية انما هي التعليم الذي يشعر الفرد بواجبه وبواجبات نظرائه وحقوقهم .

« واذا كانت الديموقراطية ان تضمن للناس السلم التي تحميهم ان يعدو بعضهم على بعض داخل حدودهم الجغرافية ، والتي تحميهم من ان يعدو عليهم الاجنبي ، فان هذه السلم محتاجة الى مادة توجدها واداة تحققها . والمواطنون الاحرار وحدهم هم القادرون على ايجاد هذه السلم . هم مادتها وهم ادواتها ...

« ولن تستطيع الديموقراطية ان تكفل للناس حياة ولا حرية ولا سلما الا اذا كفلت لهم تعليما يتيح لهم الحياة ويبيح لهم الحرية ويمكنهم من السلم » .

اننا نلمس عبر هذه الكلمات المنسقة في تسلسل منطقي مذهل ، اهتداء طه حسين الى رؤية ملهمة للسبيل الاساسية الكفيلة بدفع مصر الى المستوى الذي يؤهلها لنيل الاستقلال الحقيقي الا وهي وضع التعليم في متناول جميع ابناء الشعب ورفع مستوى التعليم في جميع مراحله، بحيث يقف المصريون على قدم المساواة مع ابناء الشعوب المتقدمة، والاوربية ، بصورة اخص ، فيكونون لهم اندادا وشركاء في الحضارة ؟

هذا الهاجس ، المتمثل في تصور ضرورة وضع المصري على قدم المساواة مع الاوربي هو الذي كان ياخذ على طه حسين تفكيره ويملي عليه الكثير من التصرفات في ادبه وفي حياته .

هذا الهاجس لم يكن نوعا من الادعاء أو التبجح ، بل انسياقا مع شعور بالكبرياء القومية من جهة ، ووجها من وجوه ايمانه بالمبادىء الديموقراطية التي استلهمها من المفكرين الانسيكلوبيديين الذين مهدوا للثورة الفرنسية ومن دراساته لتاريخ الديموقراطية في اليونان وفي روما الجمهورية .

وهذا الهاجس كان وراء تأكيده الدائم في الكثير من كتاباته وترجماته العديدة على ضرورة الذهاب الى الحضارتين اليونانية واللاتينية في سبيل الاغتراف من هذه الينابيع الثقافية التي صدرت عنها الحضارة الاوربية ، واستلهمت منها ، وخاصة من فلسفة ارسطو ، الفلسفة العقلانية والتفكير العلمي المنظم .

وهذا الهاجس كان ايضا احد دوافع طه حسين للاكثار من تعريف القراء العرب بكل ما يتعلق بالاداب الاوروبية الحديثة ، وذلك بواسطة الترجمات العديدة لكثير من الاثار الفكرية والادبية ، وبواسطة الدراسات النقدية لكثير مما ينشر من شعر وروايات ومسرحيات في اوربا .

فهذا العمل الدائب الذي سعى اليه طه حسين في سبيل ايصال القارىء العربي ، على اوسع مدى ممكن ، الى الوان من الفكر والادب العالميين الرفيعين ، والى بعض الاصول في الفكر والادب اليوناني واللاتيني كان يهدف الى رفع ذوق القارىء العربي وتفتيح حواسه على آفاق اوسع وأرحب .

ومن هذا القبيل كانت ثورته العارمة على طريقة التعليم التي كانت متبعة في الازهر وفي المدارس التي كانت تابعة له ، ودعوته الى ارساء التعليم في مصر على قواعد حديثة مأخوذة من الحضارة الاوربية المتقدمة .

فطه حسين ، اثناء دراسته ،في فرنسا ، وخلال تأملاته اللاحقة ، لمس أسرار القوة الكامنة في الحضارة الاوربية واسباب سيطرة الغربيين على الشعوب المتخلفة ومنها الشعب المصري ، فوجد ان جوهر هذه الحضارة يقوم على العلم المشاع لاكثر افراد الشعب ، وان هذا العلم هو الضمانة للديموقراطية ولمضامينها : الحرية والحياة والسلم ، اي الحرية والعمل لكسب العيش ، والامن الداخلي والخارجي .

لذلك سعى بكل ما ملكت فواه ان يدعو المصريين لامتلاك هذه العدة التي تقوم في أساس قوة اوربا : اي العلم المكتسب بالوسائل الحديثة والطرق الحديثة ، في سبيل تدعيم الاستقلال الناشىء ، بعد معاهدة ١٩٣٦ ، وفي سبيل جعل مصر أهلا لهذا الاستقلال .

ونعتقد ان ذروة نضال طه حسين في سبيل رفع شعبه الى المستوى الذي اراده له والذي لم يكن ليريد له ان يكون ادنى من مستوى الشعوب الاوربية المتقدمة كان اقراره عام ١٩٥١ يوم كان وزيرا للمعارف في الوزارة الوفدية ، مجانية التعليم الثانوي والتعليم الفني وانشاؤه آلاف الفصول للتلامذة ، وتحويله عددا هائلا من المدارس الاولية الى مدارس ابتدائية ، فساعد على تحقيق قسم من مخططه النظري الذي طرحه ، وعلى الترجمة العملية لشعاره ان التعليم ضروري للناس ضرورة الهواء والماء .

هذا الجانب من نضال طه حسين ، في الميدان الفكري ، وفي الميدان العملي ، على السواء ، يمثل اندماج الفكرة بالفعل ، وعدم انفصال الرؤية الذهنية من التحرك الاجتماعي الفاعل لاحداث التغيير الاساسي .

وهذا الجانب يجرنا الى حقيقة ثابتة أخرى تميز فكر طه وأدبه . وهي ان البعد الاجتماعي وما تضمنه من ارادة في احداث التغيير في المجتمع ، لم يغب ابدا من خاطر طه حسين ، فانعكس دائما في مسلكه وفي كتاباته .

فنحن حين نمعن النظر ، نجد ان في مؤلفات طه حسين ، دون استثناء ، تكمن دائما فكرة محاولة التأثير في مجتمعه بحيث يساعد في نقله من حالة التخلف الى حالة التقدم ومن حالة الذل والاستكانة والخمول والجهل والاستبداد والظلم الاجتماعي والجمود الى حالة العزة والكرامة والنباهة والعلم ، والمساواة والحرية الاجتماعية والازدهار الاقتصادي .

وحتى المؤلفات التي تبدو مغرقة في البحث الاكاديمي الصرف لا تخلو من هذا الاتجاه الصريح او الخفي لفتح اعين مواطنيه على حقائق الاوضاع المختلة في نظامهم السياسي والاجتماعي والفكري ، وذلك اما بالكشف عن مواضع هذا الخلل ، واما بالتعريف بأنظمة افضل تحققت في عهود مضت أو في مجتمعات حديثة غير المجتمع المصري .

فهو في دراساته الاولى لتاريخ الفكر اليوناني تحت العناوين : « قادة الفكر » و « نظام الاثينيين » يحاول ان يعرف القراء العرب من جهة ببدايات تحرك العقل الانساني في دراسة المجتمعات البشرية ، ومن جهة اخرى الاشارة الى ان النظام الديموقراطي ، كما كان الحال في اثينا القديمة يؤمن الازدهار والحرية للافراد والجماعة . او لم يصرح طه حسين في مقدمته لكتاب « نظام الاثينيين » تبريرا للموقف الموضوعي الذي وقفه ارسطو من بحث قضية الرق » .

« فكل ما وصلنا اليه بعد عشرين قرنا ، انما هو ازالة الرق الشخصي ان كنا قد وصلنا الى ذلك ـ فاما الرق الاجتماعي فما زال قائما موجودا ، والاستعمار اوضح مثال له واقوى دليل . ولسنا نريد ان نعرض لاستعباد الطبقات بعضها بعضا . وان كان هذا الاستعباد صورا من صور الرق » .

واما رسالتاه (« ذكرى ابي العلاء » المقدمة لنيل الدكتوراه من الجامعة المصرية) (و « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ») المقدمة لنيل الدكتوراه من السوربون فيمثلان بدايات تمرسه بالبحث العلمي المنظم وبالاخذ بأساليب المنهجية الفكرية في دراسات التاريخ الادبي والفكري والتاريخ السياسي ، التي اصبح الداعية الاول لها والمبدع الاول لصورتها المطبقة في الفكر العربي الحديث .

وقد جاء كتابه الشهير « في الشعر الجاهلي » ، الذي احدث ضجة هائلة في الاوساط الدينية والرجعية امتدت حتى قبة البرلمان المصري وحتى عتبات المحاكم المصرية، يرسي دعائم هذه المنهجية في معالجة الشؤون الثقافية فيدعو الى اعتماد الموضوعية والحرية الفكرية والروح النقدية

الخالصة والشك في مواجهة النصوص والاستناد الى التمحيص والتدقيق العقلاني المنظم ازاء الاحداث والاخبار المتوارثة ، لاطراح ما لا يتفق مع المنطق والعقل ، وهو نفسه يقول بالحرف الواحد (ص ٦٢) مظهرا خطورة المذهب الذي جاء للتبشير به :

« والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذي يذهبه المجددون عظيمة جليلة الخطر ، فهي الى الثورة الادبية اقرب منها الى اي شيء آخر . وحسبك انهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينا . وقد يمجدون ما اجمع الناس على انه حق . وليس خطر هذا المذهب منتهيا عند هذا الحد ،بل هو يجاوزه الى حدود اخرى ابعد منه مدى واعظم اثرا . فهم قد ينتهون الى تغيير التاريخ او ما اتفق الناس على انه تاريخ ، وهم ينتهون الى الشك في اشياء لم يكن يباح الشك فيها » (١).

وهو فوق هذا ينادي بأن الادب ليس شيئا مستقلا عما قبله وما بعده بل انه ثمرة من ثمرات العصر والبيئة والاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية .

هذه المحاولة من طه حسين لعرض كل الافكار الجاهزة حول التراث الفكري والديني والسياسي على محك الاختبار العقلي والشك المنهجي ولتزويد البحث الادبي بنظرية اجتماعية متكاملة هي التي اثارت مخاوف الفئات الرجعية في مصر فحاولت تاليب البرلمان المصري والقضاء المصري والجماهير الشعبية على هذا الاديب الذي لم يكن يتستر في اعلان ثورته، عبر هذه الدراسات الاكاديمية الصرف ، على كل الاساليب البالية في التدريس وفي التفكير وفي صياغة الناشئة المصرية .

وهذه النظرة الاجتماعية والمنهجية العقلانية اللتين اعتمدهما في كل كتاباته اللاحقة ان في حقل الدراسات الادبية والتخطيط التربوي او في ميدان التحقيقات في التاريخ الاسلامي كانتا في حقيقة الامر ، العدة الاساسية التي استخدمها في نسف النظام الفكري الموروث الذي كان في نظر طه حسين ، المسؤول عن حالة التخلف في المجتمع المصري والمجتمعات الاسلامية .

فطه حسين ، في كل كتاباته التي يبدو فيها حرصه على وضع نظرية فكرية لا يغيب عن باله ابدا الدور الذي يلعبه المفكرون في التمهيد للثورات السياسية . وقد ظلت صور الانسيكلوبيديين الفرنسيين ، من روسو الى مونتسكيو الى فولتير وديدرو ماثلة دائما امام عينيه .أليس هو الذي كتب في رده على الذين كانوا ينعون على الادب المصري تخلفه عن مجاراة ثورة ١٩٥٢ في بدايات حياتها :

« ويزعمون ان ادب الثورة لم يوجد بعد ، مع أن الثورة قد شبت منذ اكثر من عام ... . والذين يقولون هذا الكلام ينسون أو يجهلون ان الادب يمهد للثورة وينشئها ويشب جذوتها في النفوس بما يلقي في قلوب الناس من الاراء الجديدة وبما يصور لعقولهم من القيم المستحدثة ، وحين ينقل اذواقهم من طور الى طور وحين يبغض اليهم القديم من اوضاعهم الاجتماعية ويدفعهم الى تغيير الاوضاع ... انما الادباء قوم يحلمون ، والثورة تعبير وتفسير لاحلامهم » (٢).

وارادة التغيير السياسي ، عبر تصور الاوضاع البغيضة في المجتمع المصري تتجلى بصورة واضحة في الصورة الحالكة التي اعطاها طه حسين لبعض قطاعات محددة من هذا المجتمع . وان اللوحات التي رسمها طه حسين ، للمجتمع الريفي المصري الذي عرفه عن قرب في اواخر القرن الماضي وفي بدايات هذا القرن ، والتي عبر عنها بصورة مؤثرة ومذهلة ، في واقعيتها ، ودقتها التي تذكرنا باجمل ما كتبه جوركي عن روسيا القيصرية ، تشكل اتهاما خطيرا للنظام السياسي والديني والاجتماعي الذي كان سائدا في مصر . والصور المنلاحقة عن فساد طرق التعليم الديني ، وعن جو الخرافات التي كان يشيعها القيمون على هذا التعليم في نفوس الناس، وعن جو الفقر المدقع الذي كانت تتخبط فيه غالبية الناس في الريف وفي المدينة ، تشكل النسيج الاساسي للجزاين الاولين من « كتاب الايام » . فهذان الجزءان لم يكونا فقط تعبيرا عن سيرة طه حسين الصبي الملقى دون عناية بين يدي سيدنا وعريفه (اي معلم الكتّاب ونائبه) ووالده الشيخ نصف المتعلم ، وامه المرهقة باعباء تربية اولادها الثلاثة عشر ، ثم الطالب اليافع في القاهرة المتنقل بين غرفته الحقيرة في الربع بحي كفر الطماعين وحلقات التدريس في صحن الجامع الازهر والمساجد التابعة له ، وانما كان ، في الوقت نفسه ، تسجيلا حيا لسيرة كل هذه البيئة الفقيرة الى حدود مخيفة ، والساذجة الى حدود مذهلة ، والتي كان يستغل فيها سذاجة الناس الطيبين المتاجرون بالعقائد الدينية من امثال مشائخ الطرق الصوفية ، والتي كان الجهاز العتيق من رجال الدين وتفسيراتهم الخاطئة لتاريخ الاسلام ، يبقي الناس فيها في حالة خمول واذعان لمصيرهم القاتم .

ولكن نبرة طه حسين في سيره نحو فضح الاوضاع المهينة في المجتمع المتخلف الذي لم يترك مناسبة لتأكيد تعاطفه معه وارتباطه به بوشائج لا تنفصم ، لا تلبث ان تعلو في مجموعة قصصه القصيرة « المعذبون في الارض » حيث يصور بالوان مأساوية بالغة القسوة ما يمكن ان يصيب حياة الناس من مآسي الانسحاق النفسي والجسدي بفعل سيادة الآفات التي كانت تنخر المجتمع المصري : الجهل والفقر وتعدد الزوجات ، والاوبئة . ونورد هنا ، فقرتين من هذا الكتاب تمثلان مدى اقتراب طه حسين من جراحات شعبه ، ومدى ما كانت تثيره في اعماق اعماقه من اسى وثورة .

وهاتان الفقرتان مأخوذتان من الفصل السابع الذي وضع تحت عنوان ذي دلالة : « خطر » :

« لست ابغض شيئا كما ابغض القاء الدروس في الوعظ والارشاد وتنبيه الغافلين وايقاظ النائمين وتحذير الذين لا يغني فيهم التحذير ولا النذير . وانا مع ذلك مضطر الى هذا أشد الاضطرار . اراه واجبا تفرضه الوطنية الصادقة وتفرضه الكرامة الانسانية . ويفرضه الحرص على الا تتعرض مصر للاخطار المنبهة قبل ابانها ، وعلى ان يسلك هذا الوطن البائس طريقه الى التطور في اناة ورفق وهدوء لا تعصف به العواصف ولا يجري عليه ما جرى على بعض الامم من هذه الثورات التي لا تبقي على شيء . وفي مكان ابعد ، هو يقول :

« واذن فليصبر (هذا الموظف الذي يعجز عن ان يجد في مرتبه الضئيل ما يرضي ايسر ما تحتاج اليه اسرته لتعيش) . ولكن الصبر لا يطعم الجائع ولا يكسو العاري ، ولا يسكت الصبي الذي يصيح ملتمسا طعامه حين يعضه الجوع . ولا يداوي المريض ولا يغني عن الذين انتهوا الى الدرك الاسفل من الحرمان شيئا .

« وليس من الممكن ان تحل مشكلات هؤلاء الناس بالتصدق والاحسان. فان التصدق والاحسان قد يعينان على تفريج ازمة عارضة وعلى اطعام العيال يوما او اياما ، وعلى كسوة العيال في فصل من الفصول، ولكنهما لن يستطيعا ان يكفلا لهؤلاء الناس حياة يأمنون فيها من البؤس والجوع.

واظنك توافقني على اننا بين اثنتين : اما ان نترك الامور تجري على سجيتها فيكون ما لا بد ان يكون ويجري علينا ما جرى على الامم من قبلنا ، واما ان نستقبل من امرنا ما استدبر وان نحاول الاصلاح

— التتمة على الصفحة — ٥٠ —

---

(١) طه حسين : في الادب الجاهلي — الطبعة الثالثة . القاهرة — ١٩٣٣ — ص ٦٢

(٢) طه حسين:خصام ونقد — دارالعلم للملايين — بيروت — الطبعة الثالثة ١٩٦٣ ص ٣٨ .

طه حسين : الوحدة في التنوع

تابع المنشور على الصفحة ـ ٨ ـ

لنعصم موظفي الدولة من طلب الصدقة والتماس الاحسان ، فنعصم الشعب كله من طلب الصدقة والتماس الاحسان . وليس الى ذلك الا سبيل واحدة ، هي ان نعيد النظر في نظامنا الاجتماعي كله . وليس الى الاصلاح الاجتماعي من سبيل الا اذا وجدت الاداة السياسية الصالحة » .

ولكن هذه الرؤية الاجتماعية التي تضع طه حسين دائما في صف ابناء الشعب البسيط الفقير البائس ، على الرغم من ارتقائه اعلى درجات السلم في مجتمعه ، لازمت طه حسين حتى في دراساته للتاريخ الادبي القديم والتاريخ الاسلامي . فهو في الفصول التي خصصها في مجموعة « حديث الاربعاء » يظهر أثر تكدس الاموال في ايدي فتيان الارستقراطية القرشيه المبعدة في مكة والمدينة عن مشاكل الحكم والحرب في تهالكها على اللذات والمجون في حياتها ، وفي شعرها .

وفي كتاب « الوعد الحق » نراه ، في تصويره لبعض المشاهد في حياة العرب والمسلمين منذ بداية ظهور الدعوة الاسلامية ، يركز الاضواء على حقيقة ان الصراع بين الدعوة للدين السماوي الجديد وتمسك قريش بدين آبائها وآلهتها كان يخفي في الواقع صراعا طبقيا بين سراة قريش الذين كانوا يجمعون أموالهم من الاتجار مع البلدان المجاورة ومن استغلال مواسم الحج وبين أرفائهم الذين استهوتهم دعوة النبي من امثال خباب وبلال وصهيب وياسر بن عامر وزوجته وابنه عمار وما فيها من مبادىء المساواة بين جميع المؤمنين . فلا عجب ان كان هؤلاء الارقاء في طليعة الذين دخلوا في دين الله ، وأوائل الذين لاقوا العذاب والشهادة في سبيل الله .

وقد حاول طه حسين جهده في تخليص التاريخ الاسلامي من العادة المتبعة عند كل المؤرخين الذين لم يروا في هذا التاريخ غير وجوه الخلفاء والملوك والامراء وابناء العائلات الكبيرة ، والذين لم ينفكوا يظهرون النبي بمظهر الفرد الذي كان ابن أعز بيوتات العرب . فجاء أولا في كتابه « في الشعر الجاهلي » يظهر شكه بأكثر الروايات حول الانساب التي تعزى لمختلف القبائل العربية قبل الاسلام وحول هالات الامجاد التي كانت تحيط بكل الاورومات التي تحدر منها النبي وأهله .

وفي كتابه « على هامش السيرة » يجرد جد الرسول عبد المطلب من الكثير من دلائل السؤدد والمنعة والقوة المادية التي كان المؤرخون يضفونها عليه ، فحاول ان يظهره بصورة الانسان الذي لم يكن له من قوة غير قوة الايمان وارادة الخير ، اي القوة الروحية . وهو بذلك ينزع عن الدعوة الاسلامية الكثير مما علق بها من التفسيرات التي كانت تعزو بداية نجاحها الى منعة الرسول وحصانته في بني قومه استنادا الى قوة بني هاشم المادية والعددية . وكأني بطه حسين في كل هذه المحاولات يسعى لتقريب الرسول الى مستوى الانسان العادي في نشأته ومولده ، تماما مثلما كان غيره من الرسل ، تاركا للقوة الروحية الكامنة في جوهر الدعوة الدينية كل الاسباب لانتشارها وغلبتها . ونرى في هذه النظرة التي تحاول « أنسنة » نشأة الرسول واضفاء الطابع الشعبي على وضعه الاجتماعي ، ما يعطي الدعوة الاسلامية كسبا اكبر من المناداة بأن الهادي المصطفى كان من بيت هو أشرف بيوتات قريش وان قريش هي أعز مضر وان مضر هي أقوى العدنانية وان العدنانية هي أرفع العرب .

وفي موسوعته الاسلامية ، في الجزء المخصص للخليفتين ابي بكر وعمر ثم للفتنة الكبرى نلمس عند طه حسين هذا الحرص على اظهار هذا الجانب النير من بداية الحكم الاسلامي الذي يتمثل في نوع من الاشتراكية والديمقراطية الفطريتين القائمتين على التقوى والايمان ، ولكن ايضا وخاصة على العدالة وعلى المساواة بين المواطنين دون نظر للعصبية او للمولد او للنشأة او للعرق او اللون .

وفي كتابات متفرقة لاحقة ، ألقى الضوء على بعض الحركات الثورية في الاسلام ، مثل ثورة الزنج ، وحركة القرامطة ، وهي حركات تمثل انتفاضات الطبقات المحرومة ضد نظام اللامساواة والظلم الاجتماعيين ؟

وانه لا يسعنا ، نحن الذين نسمع دائما من يطلق على طه حسين صورة المفكر البورجوازي ، المنطلق دائما من القواعد الليبرالية ، الا أن ندهش لاصراره المستمر على النبش ، بصور مختلفة ، عن هذه الاشكال المتنوعة للصراعات الطبقية ان داخل المجتمع المصري او داخل المجتمعات المختلفة في تعاقب عصور التاريخ الاسلامي .

وهو ، من هذه الناحية ، يختلف عن الكثيرين من معاصريه من كتّاب ومفكرين من امثال محمد حسين هيكل واحمد لطفي السيد .

ولكنه رغم كل هذا التأكيد على فضح الفقر ورغم ثورته على كل مظاهر اللامساواة والظلم الاجتماعي ، يظل في الخط الليبرالي لانه لا يهتم الا بقضايا عدم المساواة في توزيع خيرات المجتمع وفي املاك المنتجات الاستهلاكية ، ولكنه لا يعالج بشيء قضية عدم المساواة في امتلاك ادوات الانتاج . فهو اذن يظل بعيدا عن النظرة الاشتراكية الحقيقية .

ولنات الآن الى الوجه الثالث من وجوه الوحدة والتماسك في شخصية طه حسين ، وهو الوجه المتصل بمنهجه العام في تناول القضايا التي شغل نفسه بها والمواضيع المتنوعة والمرتبطة فيما بينها بالمرمى الهادف دائما لتوعية أبناء مجتمعه .

لقد اشرنا قبلا ، كما أشار كثيرون من الباحثين قبلنا ، الى المنهج الفكري عند طه حسين ، وقلنا انه محاولة لاستخدام الشك طريقا لليقين ولتحكيم العقل والمنطق في مواجهة الافكار المتوارثة . ويعترف طه حسين ان هذا المنهج العقلاني قد تأتى له من اتصاله بالمفكرين الفرنسيين ، وخاصة ديكارت وأوغست كونت في الفلسفة وسينيوبوس في التاريخ ، واميل دوركهايم في علم الاجتماع ، وسانت بوف وتين وبرونيتيير في النقد الادبي ، وكذلك من استخدامه لبعض ومضات في آثار المفكرين المسلمين وخاصة ابن سلام وأبي العلاء المعري وابن خلدون ، ومن استخدامه العلوم الاسلامية وخاصة علم الحديث وطريقة « التعديل والتجريح » المعتمدة لغربلة الاحاديث المروية .

وهذا المنهج قد اعتمده طه حسين ، بصورة منظمة ، في دراساته الاساسية للتاريخ السياسي والديني والفكري والادبي في الجاهلية والاسلام .

وقد ظل هذا المنهج العقلاني رائده في معالجة الكثير من القضايا الاجتماعية والادبية التي كانت تشغل بال معاصريه .

ولكن يقتضينا الانصاف ان نقول ان طه حسين قد فقد مع الايام الكثير من حماسته وحدته في المناداة بضرورة تحكيم العقل وفي اللجوء الى الشك بأكثر ما في التراث المتناقل . فهو في دراساته وأفاصيصه حول نشأة الاسلام والحياة الاسلامية و « الخلفاء الراشدون » و « الفتنة الكبرى » و « الوعد الحق » و « مرآة الاسلام » و « على هامش السيرة » لا يحقق في الروايات والاقاصيص التي أوردها المؤرخون والرواة عن العصر الاسلامي الاول وأواخر الجاهلية ، بالشدة والصراحة اللتين أظهرهما في كتابيه « حديث الاربعاء » و « في الادب الجاهلي » او في رسالتيه « ذكرى ابي العلاء » و « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ، وهي الآثار التي أصدرها في مطلع شبابه وجعلت منه ، لكثرة ما دعا فيها الى الشك ، واعادة النظر بالتراث ، الفتى الرهيب في الادب العربي . فهو في دراساته التي صدرت في أيام نضجه ، يكاد يسلم بصدق اكثر الروايات المتناقلة

في كتب التاريخ ، وخاصة حول ما يتعلق بالرسول وصحابته والخلفاء الراشدين . وهو ينطلق من هذه الروايات لينسج ما ابتدعته مخيلته من قصص حول بعض الاحداث والاشخاص والمعجزات .

ونحب أن نلفت النظر الى انه لا ينبغي الاعتقاد ان بالامكان وضع صورة طه حسين في هذا الاطار الواحد المفرد أي الاطار البالغ الجدية والصرامة والاغراق في الغوص على النصوص القديمة أو الحديثة والالتصاق بها في عمليتي التسليم بها أو رفضها . فطه حسين أعطانا الامثلة العديدة في مذكراته وفي قصصه ومحاولاته الادبية المتنوعة على قدرة فائقة على الابتعاد عن النصوص الجاهزة والصور المتماثلة للاحداث والاشياء والناس وعلى ابتداع أجواء وشخصيات ووجوه ، وتخيل علاقات في حياة الناس ليست دائما من صنع الآخرين ، ولا من صنع الواقع ، وانما من صنع مخيلته الواسعة . وهذا الامر يظهر بوضوح خاصة في مجموعته « المعذبون في الارض » وحتى في « الايام » ، في جزأيه الاولين خاصة . فالوجوه والطباع التي صورها صورة واقعية آخاذة في هذه القصص التي تبدو ضربا من المذكرات وأصداء السيرة الشخصية والتي تبدو مقتلعة من واقع البيئة التي عاش فيها ، في وسطه الريفي في طفولته ، أو في حي كفر الطماعين اثناء دراسته في الازهر ، ليست كلها ، في ظني ، وجوها كاملة لاشخاص حقيقيين ، وانما وجوها ابتدعها خياله انطلاقا من بعض انطباعات ولمحات علقت في ذاكرته من اتصاله ببعض الناس والاحداث في المراحل التي قضاها في تلك البيئة . لقد كانت وجوها عمل في خلقها التأليف والتصور والتخيل والاستلهام من الواقع اكثر مما عمل النقل الاعمى عن الواقع .

وكذلك الوجوه التاريخية التي صورها في « الوعد الحق » وفي « على هامش السيرة » للناس الذين بث فيهم الحياة الدافقة وجعلهم يتحركون ويحركون اللوحات المهيبة التي حاول عبرها بعث الحياة التي كان عليها المجتمع العربي في أواخر الجاهلية وصدر الاسلام ، انها تبدو مقتلعة من واقع معاش ، لفرط ما يكسوها من لحم ودم وما تتصف به من نبض حي . ولكن القليل من الوقائع التي أعطتها نصوص الروايات والسير والاساطير المنقولة لم يكن الا النواة التي نسج طه حسين حولها ، بقدرة تخيلية مدهشة ، أبنية انسانية تأخذنا بغناها وزخارفها ونضارتها وشبه واقعيتها . وبالطبع لا يخلو طه حسين من التأثر ، في هذا الميدان ، بالكتاب الغربيين الذين تناولوا في مسرحياتهم أو قصائدهم الطويلة ، أو رواياتهم ، تاريخ المسيحية الاولى .

والذي نود ان نظهره هنا ان طه حسين لم يكتف بالاعتماد على العقل والشك ، في تحركه الادبي ، وانما استعان ايضا ، كما دعت الحاجة ، بملكة الخيال المجنح والانفعال الشعوري الحار وبزخم الايمان واليقين ، عندما حاول في كتاباته الهادفة لاعطاء أشكال حديثة لتصور الدين الاسلامي وفهمه ، التوفيق بين متطلبات العقل النازع الى الشك ومتطلبات القلب والروح النازعين الى طمأنينة اليقين ونعمة الايمان .

وهذه المحاولة التوفيقية ، التي بدأت عنده مع بداية دخوله في الاربعين من عمره ، وتولي فورة الشباب فيه ، هي في نظرنا انعكاس لحالة التوازن الذي انتهى اليه فكره ، حين أخذت تلتقي في عملية تقارب وتلاقي وانسجام ، مؤثرات ثقافته الاسلامية المؤدية الى الايمان بالتراث الديني والروحي الاسلامي ، ومؤثرات ثقافته الغربية الداعية اكثر الى الرفض والشك .

هذا التعاقب في عمليتي الرفض والشك في بداية حياته الادبية ثم الايمان واليقين المعلنين في مراحل النضج ، هو اذن وجه من وجوه محاولات التوحيد والتوازن والتماسك في نزعات نفسه المصلوبة على دروب ثقافته المتعددة النشأة .

ولنأت ، بعد هذه اللفتات الى المضمون واتجاهه ، في أدب طه حسين وفكره ، الى الوجه الشكلي في هذه الوحدة التي حاولنا تلمس ظلالها الخلفية في تعدد نشاطاته ، أي الوجه المتعلق بأسلوب طه حسين في صياغة أفكاره وأحاسيسه .

وغني عن البيان ان لطه حسين أسلوبا بيانيا مميزا وفريدا في الادب العربي الحديث ، والمجال هنا لا يتسع للاسهاب في تحليل عناصر هذا الاسلوب وتحديده وتقييمه . ولكننا نكتفي ، في هذا الباب ، بالقدر اللازم لتوضيح فكرتنا حول ترابط أدب طه حسين وتفرده وتجانسه الموحد ولاعطاء المرتكز اللازم لما سنورده في عرض الوجوه الوحدوية عند هذا الاديب .

أول ما يلفت النظر ، عند قراءة أي اثر من آثار طه حسين ، هو هذا اللجوء المستمر الى الجملة الطويلة غالبا ، ذات البناء المتناسق ، المتوازن ، والذي تتكدس فيه المرادفات ، وتتقابل الصور المتعاكسة بمدلولاتها مما يؤدي الى تآلف في محصل البناء الذهني والى تناغم لفظي وجرس موسيقي خاص نابع من هذا التوازن والتناسق بين مصاريع الجملة ، أولا ، ومن اختيار المفردات الاكثر ليونة وسهولة على اللفظ والسمع ، ثانيا . وهذا الاسلوب يصل الى ذروته في « على هامش السيرة » وفي الجزأين الاولين من « الايام » ، و « في الصيف » . وهاكم مثلا عن هذا النسق في الاسلوب نأخذه من احدى صفحات « الايام » :

« كانت تلك الفبلات تنعش قلبه وتشيع في نفسه أمنا وأملا وحنانا ، وكان ذلك النسيم الذي كان يتلقاه في صحن الازهر يشيع في نفسه هذا كله ويرده الى الراحة بعد التعب ، والى الهدوء بعد الاضطراب ، والى الابتسام بعد العبوس . ومع ذلك فلم يكن يعلم من امر الازهر شيئا ، ولم يكن يعرف مما يحتويه الازهر شيئا ، وانما كان يكفيه ان تمس قدميه الحافيتين أرض هذا الصحن ، وان يمس وجهه نسيم هذا الصحن ، وأن يحس الازهر من حوله نائما يريد ان يستيقظ ، وهادئا يريد ان ينشط ليعود الى نفسه او لتعود اليه نفسه . واذا هو يشعر انه في وطنه وبين اهله ، لا يحس غربة ولا يجد ألما وانما هي نفسه تنفتح من جميع أنحائها وقلبه يتشوق من جميع أقطاره ليتلقى شيئا لم يكن يعرفه ولكنه كان يحبه ويدفع اليه دفعا .. وهو العلم » (١) .

أترون الى هذه الجملة الطويلة ، التي يحاول الكاتب فيها ان يزيد في ترسيخ الصور والاحاسيس التي يعبر عنها في ذهن القارىء بجعل الالوان الدقيقة للفكرة الواحدة تتلاحق وتنهمر اما بصورة مفردات مترادفة بمعناها ، اوبصورة اجزاء من جملة قريبة بمؤدى مدلولاتها ، كما في قوله : « وترده الى الراحة بعد التعب والى الهدوء بعد الاضطراب والى الابتسام بعد العبوس » أو في قوله : « وانما كان يكفيه ... ان يحس الازهر من حوله نائما يريد ان يستيقظ ، وهادئا يريد ان ينشط ، ليعود الى نفسه ، او لتعود اليه نفسه » . أو في قوله : « وانما هي نفسه تنفتح في جميع أنحائها وقلبه يتشوق في جميع أقطاره » . كل هذه الوسائل التي تبدو للبعض نوعا من التكرار الممل ، تشكل المفتاح للوضوح والاشراق اللذين يميزان كل كتابات طه حسين ، والرغبة الملحة دائما عنده لايصال ما يريد ايصاله الى القارىء باقصى ما يكون من الدقة والنفاذ والفعالية .

ولننتقل الى الجانب الاخير من هذه الوحدة في التنوع عند طه حسين ، ونعني به الجانب المتعلق بالمؤثرات التي عملت في تكوين

---

(١) طه حسين : الايام ـ الجزء الثاني ـ ص ١٦٩ ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت .

ذهن طه حسين وعقله وفكره وحساسيته والتي تشكل المنطلق لتفسير أكثر الظواهر التي رأيناها في مسلك طه حسين واتجاهه ومضامين فكره وأسلوب أدبه .

يمكننا تلخيص هذه المؤثرات بما يلي :

١ ـ المؤثرات البيولوجية ، ونعني بها مجموعة المواهب والمدارك التي وهبتها الطبيعة لطه حسين والعوائق الجسدية التي كان من شأنها ان تمنع تفتح هذه المواهب والمدارك .

٢ ـ المؤثرات الاجتماعية ، ونعني بها مختلف عوامل البيئة الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بمختلف مراحل حياة طه حسين .

٣ ـ المؤثرات الفكرية والثقافية ، ونعني بها كل ألوان الزاد من المعرفة التي أتيح لطه حسين الاتصال بها والاغتراف من ينابيعها والتأثر بها والتفاعل معها اثناء مراحل تكونه الذهني ، والنفسي .

وانني اجدني مضطرا لضيق المجال الى أن اصرف النظر عن التدقيق بانعكاسات المؤثرات الاجتماعية والمؤثرات الثقافية على أدب طه حسين ومسلكه .

وأظنني قد أعطيت بعض اللمحات حول هذه الانعكاسات فيما سبق من أقسام هذا البحث . وانني أحيل القارىء الى الدراسات العديدة التي خصصت لطه حسين وأخص منها بالذكر أبحاث شكري عياد (١) ، وكامل زهيري (٢) ، ومحمود أمين العالم (٣) ، وأحمد زكي (٤) ، ورجاء النقاش (٥) ، وألبرت حوراني (٦) . على كل حال فان طه حسين نفسه في الكثير من كتاباته وخاصة في مقدماته لرسالتيه حول « المعري » و « ابن خلدون » وفي « الايام » يبين بوضوح واسهاب اثر الذين تعاقبوا عليه من أساتذة ، في قريته اولا ، ثم في الازهر والجامعة المصرية الناشئة ، واخيرا في باريس ، وما خلفوه في نفسه من يقظة ورضى أو نفور .

ولنكتف الآن بالحديث عن المؤثرات البيولوجية التي نعتقد أن لها دورا كبيرا في طبع طه حسين الانسان والاديب بطابع لا يمحى .

وهذه المؤثرات نود ان نحصرها في عاملين :

عامل ايجابي : وهو قوة الادراك العقلي الفائقة .

وعامل سلبي : وهو آفة العمى التي ابتلي بها طه حسين منذ الثالثة من عمره .

ونحن لن نسعى لندرس كل من هذين العاملين بصورة مستقلة عن الآخر ، بل سنحاول معالجتهما معا بسبب التفاعل المستمر والتشابك او التداخل المتصل بينهما اولا وبين آثارهما في نفس طه حسين ثانيا .

وأول ما نريد ان نقرره ان طه حسين قد رزق ولا شك بنية عقلية وذهنية مدهشة بقدرتها على استيعاب كل ما يلقى على سمعه وعلى اختزان كل المتلقيات الحسية والذهنية في ذاكرة عجيبة لا حدود لقدرتها الاختزانية . وقد حبا الله طه حسين بمقدرة هائلة على تحليل المعلومات التي تتلقاها حواسه وعلى تصنيفها في المجاري الذهنية الخاصة التي اعتاد اختزانها فيها لحين الحاجة اليها .

وقد وهب الى جانب هذه القوى المهدة للادراك المقدرة على التأليف بين هذه المعلومات المتلقاة والربط فيما بينها ودمج ما يلزم منها ، وفرز ما لا يلزم ، لتكوين الافكار والرؤى وتوليد الصور الذهنية التي يختزنها او يدفع بها عبر قلمه او لسانه .

(١ ـ ٥) الهلال : عدد خاص بطه حسين ـ ١٩٦٦ .

(٦) ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ـ ترجمة كريم عزقول عن الانكليزية ـ بيروت ١٩٦٨ ، دار النهار للنشر .

وكل هذه المدارك والقوى ما كانت لتكفي لتجعل من صاحبنا الاديب الفذ الذي نعلم ، لو لم تزوده العناية والطبيعة بملكة القدرة على التعبير عن كل ما يضطرب في خاطره ويتلجلج في صدره بصورة بدهية رائعة ، بواسطة الكلمة المسموعة ، دون حاجة الى مراجعة أو تصحيح آني .

وكل هذه القوى والمدارك ما كانت لتثيرنا وتسترعي انتباهنا لو لم يصاحبها الجانب الاخر من البنية البيولوجية عند طه حسين ، ألا وهو ما يسميه عادة « بالآفة » ، أي آفة العمى .

فلاول وهلة كان من حقنا ان نتصور ان هذه الآفة كانت حرية بأن تشكل عائقا يقف في وجه تجلي المدارك التي ذكرنا على الصورة الفريدة التي رأيناها عند طه حسين .

ولكن أصبح من الشائع الاعتقاد ان هذه الآفة ، ان سببت عائقا امام طه حسين وأمام كل أعمى للتعرف على العالم الخارجي من خلال « المحسسات » البصرية ، فانها بالمقابل تعين على اغناء عالمه الداخلي .

فان من المعروف عند العلماء ان المعلومات المباشرة المتلقاة بواسطة حاسة البصر ، عند المبصرين ، هي عادة من الغزارة والطغيان والكثافة بحيث تؤدي الى صرف الذهن عن الافادة من هذه المعلومات الحسية في سبيل تحويلها الى مركبات ذهنية ، عن طريق التأليف فيما بينها وربطها في العمليات التي تدخل فيما يسمى بالادراك . اما الاعمى الذي يتقلص عالمه الخارجي الى الحد الادنى ولا يتلقى من هذا العالم الا ما يأتيه بواسطة حواس السمع والشم والذوق واللمس ، وهي كلها حواس ذات مدى ونطاق ضيقين جدا ، فمحمول بفضل هذه الندرة في ما يتلقاه من معلومات حسية مباشرة ، على ان يتفرغ اكثر من المبصر للعمليات التأليفية بين المحسسات والمتلقيات بحيث يحولها الى مدركات . فهو في وضع يتيح له الانصراف اكثر الى التأمل والقدرة على استكناه المدركات المتلقاة .

هذه الآفة التي ابتلي بها طه حسين منذ صغره الباكر ، كانت ، اذن ، من هذه الناحية ، نعمة عليه . وما نظنه الا انه ، بعد ان بلا آثارها في أدبه وفكره ، قد عرف فضلها أو ، على الاقل ، هو كان أقل سخطا عليها وأقل انسياقا مع التشاؤم والنقمة على الدنيا ، بسببها ، من زميله المعري ، ذلك العبقري الآخر الذي لم تفارق ذكراه ولا أشعاره مخيلة صاحبنا .

وقد كان لآفة العمى آثار بعيدة على طه حسين الاديب والانسان . وأولى هذه الآثار انها عمقت فيه عادة الانصات الى الناس والاشياء لتلقي أكبر قدر ممكن لا من الاصوات فقط بل من التفاريق الدقيقة التي تفصل بينها والتي تميز كل كائن وكل مناخ وكل حضور بصورة لا يلتفت عادة الى مثلها كل المبصرين .

ومن هذه العادة للانصات ، عند طه حسين ، التي كانت تشد اذنيه الى ما وراء الجدران كما يقول ، والتي كانت تسمح له بان يسمع ويرى ليس بأذنيه فحسب بل بكل فلذة وكل صفحة من جلد وجهه ويديه وكافة جسمه ، كان تعلقه بالكثير من التفاصيل والدقائق الفاصلة بين الاشياء والعلاقات والناس ، والتي نرى في كثير من كتاباته الوجدانية ، وخاصة في « الايام » و « على هامش السيرة » و « في الصيف » نماذج جميلة منها .

ومن آثار هذه الآفة حرصه على عدم تعرضه لشماتة او هزء الاخرين ، وفي ما يرويه في « الايام » عن تعرضه وهو بعد صبي لهزء اخوته بسبب غلطة ارتكبها في تناول طعامه ، اشارة ذات دلالة :

« من ذاك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة والاشفاق والحياء لا حد لها . ومن ذلك الوقت عرف لنفسه ارادة قوية ... هذه الحادثة اخذته بالوان من الشدة في حياته جعلته مضرب المثل في الاسرة وبين الذين عرفوه حين تجاوز حياة الاسرة الى الحياة الاجتماعية ... كان قليل الاكل امام الآخرين ... ثم حرم على نفسه من الوان اللعب والعبث كل شيء الا ما لا يكلفه عناء ولا يعرضه للضحك او للاشفاق ...

« وانصرافه هذا عن العبث حبب اليه لونا من الوان اللهو هو الاستماع الى القصص والاحاديث ... ومن هنا تعلم حسن الاستماع » (١) .

وقد يكون اشفاقه من ان يعرض نفسه لهزء الاخرين هو الذي دفعه للركون الى العلم وللاستزادة ما وسعه من المعرفة . وطلب العلم لم يكن عند طه حسين وسيلة لاغناء نفسه وذاته فحسب ، ولا وسيلة لكسب العيش بصورة كريمة كما كان يطمح له والده عندما أرسله الى الازهر ، وانما كان كذلك سبيلا لشق طريقه الى الموضع الذي يكون فيه على قدم المساواة مع المبصرين ، بل في موضع أسمى . وفي « الايام » نجد وقائع عديدة اخرى ذات دلالة واضحة ، تؤكد هذا التوق العجيب عند هذا الانسان الذي حرم نعمة البصر ، لتاكيد مكانه تحت الشمس الى جانب المبصرين . ومن هذه الوقائع اقدامه عند عودته من الازهر الى القرية ، في أولى اجازاته الصيفية ، على المجاهرة بآراء جريئة حول رفض الاستعانة بالادعية وباخبار الاولياء للتوسل الى الله . وهو يعترف انه أدلى بتلك الآراء التي صدم بها والده الشيخ وكل المشائخ العاملين في الدائرة الريفية المتصلة بقريته ، في سبيل لفت الانظار اليه ، وفرض مهابته على أهله وعلى أبناء المنطقة ، بعد أن لمس لامبالاة من الجميع لدى عودته من الازهر ، وهو بعد صبي لم يتجاوز الثالثة عشرة فاستصغروه . فيقول طه حسين بالحرف الواحد تعقيبا على هذه الواقعة :

« وعلى كل حال فقد انتقم الصبي لنفسه ، وخرج من عزلته وشغل الناس في القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه . وتغير مكانه في الاسرة ، مكانه المعنوي ، ان صح التعبير . فلم يهمله أبوه ، ولم تعرض عنه أمه واخوته ، ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والاشفاق بل على شيء اكثر وأثر عند الصبي من الرحمة والاشفاق » .

(١) طه حسين : « الايام » ـ المجلد الاول ، ص ٢٤ ـ ٢٧ ، دار الكتاب اللبناني .

هذه الحادثة أعطت طه حسين الاختبار الاول للقوة الكامنة في امتلاك هذه الاداة السحرية : العلم والمعرفة .

وقد أقبل على امتلاك هذه الاداة بنهم مدهش . ثم أقدم على استخدام هذه الاداة ، ليس في سبيل تأكيد موضعه تحت الشمس ، على قدم المساواة مع المبصرين ، انما لتفجير شمس المعرفة في نفوس المبصرين ، ولجعل بصيرته مشاعا مع الآخرين .

واذا كان لنا ان نختصر طه حسين في كلمة ، لقلنا : انه الانسان الذي حجبت عنه الطبيعة أضواء الاشياء فكان رده ارتدادا الى أضواء الفكر يغني بها نفسه ويغني الآخرين .

طه حسين ظل اذن الباحث عن الضوء ، والساعي لاعطاء الضوء ، حيث مر .

وهذا التوق للاضاءة يتجلى قبل كل شيء في صفة المعلم التي كانت احب الصفات الى نفسه والصقها بذاته . فهو في كل كتاباته وفي كل خطبه وتصرفاته لم ينقطع يوما عن اتخاذ هذه الصفة التي كان يجد فيها وسيلة للاتصال بالآخرين لايصال أضواء المعرفة الى نفوسهم : المعرفة بالتراث القومي ، والمعرفة بتراث الانسانية .

وهذه النزعة لاشاعة الضوء هي التي تتجلى في ديباجة طه حسين وفي أسلوبه البالغ الوضوح ، والبالغ الشفافية ، ليكون أفعل في ايصال الفكرة الى نفس قرائه .

وهذه الرغبة في نشر الضوء هي التي تكمن وراء محاولات طه حسين ، عبر كتاباته التي تندرج عادة تحت اسم السيرة الذاتية ، لتعرية ذاته واظهار نفسه وبيئته في ما لها وفي ما عليها ، وذلك لاشراك الآخرين في التجارب النفسية والفكرية التي عاناها ، ومحاولة لتجنيب ابناء مجتمعه الالام التي عاناها بسبب الاوضاع الاجتماعية المختلة .

وهي كذلك وراء محاولته لاحداث التخطيط التربوي الداعي لاشاعة التعليم وجعله ضروريا ضرورة الماء والهواء ، ونضاله في سبيل تحقيق ما أمكن من هذا المخطط .

وبكلمة ، ان هذا السعي وراء الضوء يكاد يكون القاسم المشترك الاساسي بين مختلف الاصعدة التي رأيناها في عملية التوحيد والتنسيق بين مختلف اندفاعات ونشاطات طه حسين .

ومرة اخرى حسب هذا الاديب ، الذي حرم نعمة الضوء ان يكون مصدر اضواء لا تخبو في عصره ولن تخبو في العصور التي سنلي(٢) .

بيروت

(٢) محاضرة القيت بدعوة من المجلس الثقافي للبنان الجنوبي.

كتب عقائدية وفكرية

من منشورات دار الآداب

الثقافة والثورة	محمود امين العالم	دفاعا عن الثورية	ريجي دوبريه
ماركيوز او فلسفة الطريق المسدود	محمود امين العالم	القوة السوداء	ستوكلي كارمايكل
ادب المقاومة في فلسطين المحتلة	غسان كنفاني	الوحدة العربية آتية	ارنولد توينبي
هيا الى الثورة	جيري روبين	التحدي الصهيوني	جاك دومال ـ ماري لوروا
النشاط الجنسي وصراع الطبقات	رايموت رايش	جمال عبدالناصر من حصار الفالوجة	« «
الوجه الاخر لامريكا	ميكائيل هارنغتون	الارهابيون والفدائيون	رولان غوشيه
حرب المقاومة الشعبية	الجنرال جياب	اقتراح دولة فلسطين	احمد بهاءالدين
قصة المقاومة الفيتنامية	الجنرال جياب	الكواكبي المفكر الثائر	نوربير تابيرو
الكفاح المسلح	دوغلاس هايد	عاجلا او آجلا ستزول اسرائيل	ترجمة ريمون نشاطي
ثورة في الثورة	ريجي دوبريه		

دار الآداب ص ب ٤١٢٣ بيروت